Hebron University Research Journal(B)
Vol.(12), No.(2), pp.(79-92), 2017

H.U.R.J. is available online at
http://www.hebron.edu/journal

مُصْطَلَحُ الْقَسْوَةِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

زهران عمر زهران، د. عودة عبد عودة عبد الله، نادي حمد الله خروب

جامعة النَّجاح الوطنيَّة، فلسطين

المُلخَّص:

يقوم هذا البحث على تَتبُّع لفظ (القسوة) ومشتقَّاته في القرآن الكريم، وفق منهجيَّة التَّفسيرِ الموضوعيِّ للمصطلحِ القرآنيِّ؛ وذلك بغرض فهم هذا المصطلح، والوقوف على المعاني والدّلالات المتعلِّقة به. وقد تبيَّن من خلال تَتبُّع هذا المصطلح في القرآن الكريم؛ أنَّه جاء مقترناً بالقلب في كُلِّ مواضعه؛ وما ذاك إلَّا لأنَّ القلب هو سيِّد الأعضاء؛ فإن قسا قست. وجاءت القسوة أيضاً مذمومةً في سائر المواضع. ومن أهمِّ القيم المستفادة من دراسة مصطلح القسوة في القرآن الكريم: بيان أنَّ السَّبيل للنَّجاة من قسوة القلوب هو ذكر الله تعالى، والتَّمسُّك بأمره واللُّجوء إليه، والتَّفكُّر في عاقبة القاسية قلوبهم. ويظهر ذلك من خلال النَّظر في النَّماذج الَّتي عرضها القرآن الكريم لجملةٍ من القاسية قلوبهم، كبني إسرائيل والظَّالمين، وما آل إليه حالهم، والتَّذكير المستمرّ لهم؛ لعلَّ قلوبهم تلين وتخضع لأمر الله تعالى.

الكلمات المفتاحية: القرآن، التَّفسير الموضوعيّ، القسوة.

Abstract:

This study aims at looking into the term “harshness” and all its derivations in the Holy Quran. It is based on the objective explanation of the Quranic term so that it’s meaning and all the relevant explanations can be understood. Looking into this term in the Holy Quran, it can be seen that wherever it occurs, it is combined with the heart. As the heart is the main organ of the body but it is vilified. One of the most important values learned from studying the term cruelty in the Qur'an, the way to survive the gruelling heart is by remembering the almighty God, and to stick to His bides. Also to consider the consequence of heart harshness, by considering the Quranic models presented by the Holy Qur'an as Bani Israel and other cruel people and what consequences they faced. Keep reminding so that perhaps their hearts can be softened and are subject to the order of Allah the almighty.

المُقدِّمة:

الحمد لله الَّذي خلق فسوَّى، والَّذي قدَّر فهدى، والَّذي أعطى كلَّ شيءٍ خلقه ثمَّ هدى، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه من خلقه وخليله، بلَّغ الرِّسالة، وأدَّى الأمانة، ولبَّى نداء ربِّه، حتَّى أجاب مناديه، وبعد:

فإنَّ الله تعالى قد بيَّن في كتابه أهمِّيَّة القلب، وامتدح فيه اللِّين والخشوع والرَّأفة والرَّحمة، وما شاكلها من سماتٍ طيِّبة، وذمَّ فيه القسوة والعنف والغلظة. قال تعالى: ((فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ * وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ))، (آل عمران: آية 159). والقلوب صنفان: قلب ليِّن خاشع، وقلب قاس، وإنَّ أهمِّيَّة القلب تنبع من كونه سيِّد الأعضاء، قال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: "أَلَا إِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً؛ إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ؛ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ"[1]. وإنَّ من تمام نعم الله عزَّ وجلَّ على خلقه أن بعث لهم الأنبياء والمرسلين، يُذكِّرونهم بالله تعالى وبآياته؛ لعلَّ هذه القلوب تخشع وتلين.

أهداف البحث:

يأتي هذا البحث للنَّظر في الآيات القرآنيَّة، الَّتي ورد فيها لفظ (القسوة) ومشتقَّاته؛ وذلك بغرض تحقيق الأهداف الآتية:

1. فهم مصطلح (القسوة)، والوقوف على المعاني والدّلالات المُتعلِّقة به.
2. معرفة الأسباب الَّتي تُؤدِّي إلى قسوة القلوب، والآثار النَّاتجة عن ذلك.
3. بيان القيم الَّتي تعين على اللِّين والخشوع والرَّحمة.

مشكلة البحث:

يحاول هذا البحث الإجابة عن التَّساؤلات الآتية:

1. ما المعاني الَّتي ورد عليها مصطلح (القسوة) في القرآن الكريم؟
2. ما الدّلالات المرتبطة بورود مصطلح (القسوة) في السِّياقِ القرآنيِّ؟
3. ما أسباب القسوة؟ وما الآثار النَّاتجة عنها؟
4. ما هي أبرز التَّوجيهات القرآنيَّة للتَّخلُّص من القسوة؟

الدِّراسات السَّابقة:

بعد البحث والتَّدقيق والتَّحرِّي في الدِّراسات القرآنيَّة السَّابقة؛ وجدنا بعض الدِّراسات الَّتي لها علاقة بموضوع القسوة في القرآن الكريم، وهي دراسات كان موضوعها الأساسيّ هو (القلب)، ولكنَّها تحدَّثت في ثنايا الموضوع عن القسوة؛ ومن أهمِّها:

1. القلب في القرآن الكريم: دراسة موضوعيَّة. رسالة ماجستير للطَّالبة ابتهاج ياسر، إشراف: الدّكتور خالد علوان، جامعة النَّجاح الوطنيَّة.
2. القلب في القرآن وأثره على سلوك الإنسان، للدّكتور سيِّد الشَّنقيطيّ.

منهجيَّة البحث:

لقد اتَّبعنا في هذا البحث المنهجين الاستقرائيِّ والتَّحليليِّ؛ وذلك باستقراء الآيات الَّتي تناولت هذا المصطلح وتَتَبُّعِها، ثمَّ تحليلها ودراستها من خلال كتب التَّفسير خاصَّة، وغيرها من المراجع الَّتي

---

[1] البخاريُّ، محمد بن إسماعيل، **صحيح البخاريِّ**، تح: محمد زهير الناصر، (ط1)، بيروت: دار طوق النجاة، (1422هـ)، (ح: 52)، (كتاب الإيمان)، (باب من استبرأ لدينه)، (1/ 56).

أفدنا منها في هذه الدِّراسة، ثمَّ المنهجِ الاستنباطيِّ؛ بغرض استخلاص أهمِّ التَّوجيهات القرآنيَّة للتَّخلُّص من القسوة.

محتوى البحث:
جاء هذا البحث في مُقدِّمةٍ، وأربعة مباحث، وخاتمةٍ، على النَّحو الآتي:
المبحث الأوَّل: مفهوم القسوة ودلالاتها في السِّياقِ القرآنيِّ.
المبحث الثَّاني: أسباب القسوة والآثار النَّاتجة عنها.
المبحث الثَّالث: نماذج قرآنيَّة دالَّة على قسوة القلب.
المبحث الرَّابع: التَّوجيهات القرآنيَّة للتَّخلُّص من القسوة.

وبعد، فهذا عملٌ بشريٌّ عرضة لأنْ يعتريه النَّقص، فما كان فيه من صوابٍ؛ فمن فضْل الله Ψ، وما كان من خطأ؛ فمِن أنفسنا والشَّيطان، ونستغفر الله Ψ منه، ونتوب إليه، ونسأله Ψ أنْ يكون عملنا هذا حجَّة لنا لا علينا، إنَّه سميعٌ قريبٌ مجيبٌ.

المبحث الأوَّل: مفهوم القسوة ودلالاتها في السِّياقِ القرآنيِّ.

المطلب الأوَّل: مفهوم القسوة.
تُطلق القسوة في **اللُّغة** ويُراد بها كما يرى ابن منظور: الصَّلابة[2]. وذكر ابن فارس أنَّها تعني: الشِّدَّة والصَّلابة، وهي غلظٌ في القلب، مأخوذةٌ من قسوة الحجارة[3]. وقال الرَّاغب الأصفهانيُّ: "القَسْوَةُ: غلظ القلب، وأصله من: حجر قَاسٍ، والْمُقَاسَاةُ: معالجة ذلك"[4].
أما في **الاصطلاح** فقد عرَّفها المناويُّ أنَّها "غلظ القلب"[5]. وقال الإدريسيُّ: "انحرافُ القلب عن مراقبة الرَّبِّ"[6]. وقال ابن القيِّم: "وأمَّا القسوة فيبسٌ في القلب يمنعه من الانفعال، وغلظةٌ تمنعه من التَّأثُّر بالنَّوازل؛ فلا يتأثَّر لغلظته وقساوته، لا لصبره واحتماله"[7].

وفي التَّفريق بين القسوة والصَّلابة، يقول أبو هلال العسكريُّ: "الفرق بين القسوة والصَّلابة: أنَّ القسوة تُستَعمل فيما لا يقبل العلاج؛ ولهذا يُوصَف بها القلب وإن لم يكن صلباً".[8]

---

(2) يُنظَر: ابن منظورٍ، محمد بن مكرم، **لسان العرب**، (ط1)، بيروت: دار صادر، (د. ت)، (15/ 180).
(3) يُنظَر: ابن فارسٍ، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، **معجم مقاييس اللُّغة**، تح: عبد السلام هارون، (ط2)، بيروت: دار الفكر، (1399هـ - 1979م)، (5/ 87).
(4) الرَّاغب الأصفهانيُّ، أبو القاسم الحسين بن محمد، **المفردات في غريب القرآن**، تح: صفوان عدنان الداودي، (ط1)، دمشق: دار القلم، وَبيروت: الدار الشامية، (1412هـ)، (ص671).
(5) المناويُّ، محمد عبد الرؤوف، **التَّوقيف على مهمَّات التَّعاريف**، تح: محمد رضوان الداية، (ط1)، بيروت: دار الفكر، (1410هـ)، (1/ 583).
(6) ابن عجيبة، أحمد بن محمد بن المهدي الفاسي، **البحر المديد**، (ط2)، بيروت: دار الكتب العلمية، (1423هـ)، (7/ 481).
(7) ابن القيِّم، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين، **الرُّوح**، (د. ط)، بيروت: دار الكتب العلمية، (1395هـ - 1975م)، (ص241).
(8) العسكريُّ، الحسن بن عبد الله بن سهل، أبو هلال، **معجم الفروق اللُّغويَّة**، تح: بيت الله بيات، (ط1)، إيران: مؤسسة النشر الإسلامي، (1412هـ)، (ص429).

يظهر ممَّا سبق الاتِّفاق التَّامُّ بين المعنى اللُّغويِّ والمعنى الاصطلاحيِّ للفظ القسوة، غير أنَّ التَّعريف الاصطلاحيَّ أضاف سبباً رئيساً يُؤدِّي إلى قسوة القلب، وهو عدم استشعار رقابة الرَّبِّ.

المطلب الثَّاني: لفظ القسوة في القرآن الكريم.

ورد لفظ القسوة بمشتقَّاته في القرآن الكريم سبع مرَّاتٍ[9]، في ستِّ آياتٍ قرآنيَّةٍ، وهي على النَّحو الآتي:

الرَّقم	الآية	رقمها	السُّورة	مكيَّة/ مدنيَّة
.1	" ثُمَّ **قَسَتْ** قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ **قَسْوَةً** وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ... ".	74	البقرة	مدنية
.2	" فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ **قَاسِيَةً** يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ * وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ".	13	المائدة	مدنية
.3	" فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِنْ **قَسَتْ** قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ".	43	الأنعام	مكية
.4	" لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ **وَالْقَاسِيَةِ** قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ".	53	الحج	مدنية
.5	" أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ **لِّلْقَاسِيَةِ** قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ".	22	الزمر	مكية
.6	" أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ **فَقَسَتْ** قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ".	16	الحديد	مدنية

الدّلالات المستفادة من الآيات:

1. معنى القسوة في السِّياق القرآنيِّ يدور حول المعنى اللُّغويِّ والاصطلاحيِّ؛ فهو الشِّدَّة والصَّلابة واليُبُوسة، وهذا ما تدلُّ عليه أقوال المُفسِّرين، في تفسير الآيات القرآنيَّة، الَّتي ورد فيها لفظ القسوة، ومن ذلك ما جاء من أقوالهم في تفسير قوله تعالى: ((فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ **قَاسِيَةً** يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ))، (سورة المائدة: آية 13):
   - قال الطَّبريُّ: "غليظة يابسة، منزوعة منها الرَّأفة والرَّحمة"[10].
   - وقال البغويُّ: "غليظة لا تلين"[11].
   - وقال ابن عجيبة: "يابسة صلبة، لا ينفع فيها الوعظ والتَّذكير، أو رديَّة مغشوشة بمرض الذُّنوب والكفر"[12].
2. اقترنت القسوة في الآيات القرآنيَّة كلِّها بالقلوب؛ وهذا إن دلَّ فإنَّه يدلُّ على أنَّ القلب هو مصدر القسوة.

---

(9) يُنظَر: عبد الباقي، محمد فؤاد، **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، (ط1)، القاهرة: دار الحديث، (2001م).

(10) الطَّبريُّ، محمد بن جرير، **جامع البيان في تأويل القرآن**، تح: أحمد شاكر، (ط1)، بيروت: مؤسسة الرسالة، (1420هـ)، (10/ 127).

(11) البغويُّ، الحسين بن مسعود، **معالم التَّنزيل**، تح: محمد عبد الله النمر، (ط4)، الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، (1417هـ)، (3/ 31).

(12) ابن عجيبة، **البحر المديد**، (2/ 216).

3. جاء لفظ القسوة في موضع الذَّمِّ في الآيات القرآنيَّة كلِّها؛ فتارة نسب الله تعالى أهل القسوة إلى الضَّلال، كما في قوله: ((فَوَيْلٌ **لِّلْقَاسِيَةِ** قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ))، (سورة الزمر: آية 22). وتارة نسبهم الله تعالى إلى الفسق، كما في قوله: ((وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ **فَقَسَتْ** قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ))، (سورة الحديد: آية 16). وتارة نسبهم الله تعالى إلى الظُّلم، كما في قوله: ((لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ **وَالْقَاسِيَةِ** قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ))، (سورة الحج: آية 53).
4. شبَّه القرآن الكريم القلوب القاسية بالحجارة، كما في قوله تعالى: ((ثُمَّ **قَسَتْ** قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ...))، (سورة البقرة: آية 74)؛ وذلك في سياق الحديث عن قسوة قلوب بني إسرائيل؛ للدَّلالة على أنَّها بلغت منتهى الغاية في القسوة؛ لأنَّ الحجارة هي الشَّيء المألوف لنا والَّذي تدركه حواسُّنا، وقال ابن عاشور: "لأنَّ أشهر الأشياء في هذا الوصف هو الحجر، فإذا ذُكِرت القسوة؛ فقد تهيَّأ التَّشبيه بالحجر"[13].
5. يُفهَم من الآيات القرآنيَّة الَّتي تحدَّثت عن القسوة، أنَّ ذكر الله تعالى، كما أنَّه سبب في اطمئنان القلوب وخشوعها، قد يكون سبباً في قسوتها. ولكن كيف؟

الأصل في الذِّكر أنَّه يُؤدِّي إلى طمأنينة القلب، كما دلَّ على ذلك قوله تعالى: ((أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ))، (سورة الرَّعد: آية 28). وهذا بالنِّسبة للنُّفوس الطَّاهرة النَّقيَّة، وثمَّة نفوس خبيثة ماكرة لا يزيدها الذِّكر إلَّا بعداً عن الحقِّ ونفوراً منه، كما يدلُّ عليه قوله تعالى: ((فَوَيْلٌ **لِّلْقَاسِيَةِ** قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ))، (سورة الزُّمر: آية 22). يقول الرَّازيُّ: فذكر الله يوجب النُّور والهداية والاطمئنان في النُّفوس الطَّاهرة، ويوجب القسوة والبعد عن الحقِّ في النُّفوس الخبيثة الشَّيطانيَّة. فإذا عرفت هذا فنقول: إنَّ رأس الأدوية الَّتي تفيد في الصِّحَّة الرّوحانيَّة ذكر الله تعالى؛ فإذا اتَّفق لبعض النُّفوس أنْ صار ذكر الله تعالى سبباً لازدياد مرضها؛ كان مرض تلك النَّفس مرضاً لا يُرجَى زواله، ولا يُتَوقَّع برؤه، وكانت هذه النَّفس في نهاية الشَّرِّ والسُّوء[14].

المبحث الثَّاني: أسباب القسوة والآثار النَّاتجة عنها.

إن المرء لا يسقط في أوحال العنف والقسوة مرَّةً واحدةً، وإنَّما ينتقل من معصية إلى معصية، وفعل مشين يتلوه فعل مشين؛ حتَّى تسيطر القسوة على قلبه؛ فلا يعرف معروفاً، ولا ينكر منكراً؛ فترى منه عجباً في الفساد والظُّلم والاعتداء، يقول النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: «تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا؛ نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا؛ نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ؛ حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ، عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا؛ فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ، مُجَخِّيًا[15]؛ لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ»[16].

---

[13] ابن عاشور، محمد بن الطاهر، **التَّحرير والتَّنوير**، (د. ط)، تونس: الدار التونسية، (1984م)، (1/ 425)؛ وينظر: الشعراوي، محمد متولي، **تفسير الشعراوي**، (ط1)، القاهرة: مطابع أخبار اليوم، (1991م)، (ص87).

[14] يُنظَر: الرَّازيُّ، محمد بن عمر، **مفاتيح الغيب**، (ط1)، بيروت: دار الكتب العلمية، (1421هـ)، (26/ 232).

[15] **مُجَخِّيًا**: أي منكوساً أو مائلاً.

[16] مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، **صحيح مسلم**، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، (د. ط)، بيروت: دار إحياء التراث العربي، (د. ت)، (ح: 231)، (كتاب الإيمان)، (باب بيان أن الإسلام بدأ غريبا)، (1/ 128).

المطلب الأوَّل: أسباب القسوة.

المُتَأمِّل لآيات القرآن الكريم الَّتي تحدَّثت عن القسوة؛ يتبيَّن له جملة من الأسباب الَّتي تُؤدِّي إلى قسوة القلب، وهي على النَّحو الآتي:

(1). طول المكث في الغفلة.

الغفلة: ترك الشَّيء والسَّهو عنه[17]. وعرَّفها الجرجانيُّ بأنَّها: "متابعة النَّفس على ما تشتهيه"[18]. وقال حقيٌّ في تفسيره لقوله تعالى: ((اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ))، (سورة الأنبياء: آية 1)؛ في غفلة: أي سهو[19].

وهذا السَّبب من أسباب القسوة ظاهرٌ في قوله تعالى: ((فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ **فَقَسَتْ** قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ))، (سورة الحديد: آية 16). يقول ابن عادلٍ: "طالت أعمارهم في الغفلة؛ فحصلت القَسْوة في قلوبهم بذلك السبب"[20]. ويظهر هذا المعنى بجلاءٍ في قول النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: "إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ؛ كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فِي قَلْبِهِ، فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ؛ صُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ زَادَ زَادَتْ حَتَّى يَعْلُوَ قَلْبَهُ ذَاكَ الرَّيْنُ"[21].

والغفلة داءٌ خطيرٌ، إذا استحوذ على القلوب، وتمكَّن من النُّفوس، واستأثر على الجوارح والأبدان؛ أدَّى إلى انغلاق أبواب الهداية كلِّها، يقول ابن القيِّم - رحمه الله - واصفاً حال أكثر الخلق: "ومن تأمَّل حال هؤلاء الخلق، وجدهم كلَّهم إلَّا أقلّ القليل؛ قد غفلت قلوبهم عن ذكر الله تعالى، واتَّبعوا أهواءهم، وصارت أمورهم ومصالحهم فُرطاً؛ أي فرَّطوا فيما ينفعهم ويعود بصلاحهم، واشتغلوا بما لا ينفعهم بل يعود بضررهم عاجلاً وآجلاً"[22].

(2). الاستغراق في المعاصي.

الغفلة عن الإيمان، والاستغراق في المعاصي والشَّهوات، وانحراف القلب عن مراقبة الرَّبِّ، تُؤدِّي إلى قسوة القلب، "وليس وراء قسوة القلوب إلَّا الفسق والخروج. إنَّ هذا القلب البشريَّ سريع التَّقلُّب، سريع النِّسيان. وهو يشفّ ويشرق فيفيض بالنُّور، ويرفّ كالشُّعاع، فإذا طال عليه الأمد بلا تذكير ولا تَذكُّر؛ تبلَّد وقسا، وانطمست إشراقته، وأظلم وأعتم! فلا بدَّ من تذكير هذا القلب؛ حتَّى يذكر

---

[17] يُنظَر: الزُّبيديُّ، محمد بن محمد بن عبد الرزاق، **تاج العروس من جواهر القاموس**، (د. ط)، القاهرة: دار الهداية، (د. ت)، (30/ 108).

[18] الجرجانيُّ، علي بن محمد، **التَّعريفات**، تح: إبراهيم الأبياري، (ط1)، بيروت: دار الكتاب العربي، (1405هـ)، (ص209).

[19] يُنظَر: حقّيّ، إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي، **روح البيان**، (د. ط)، بيروت: دار الفكر، (د. ت)، (8/ 226).

[20] ابن عادلٍ، أبو حفص سراج الدين عمر بن علي الحنبلي الدمشقي النعماني، **اللّباب في علوم الكتاب**، تح: عادل أحمد عبد الموجود، (ط1)، بيروت: دار الكتب العلمية، (1410هـ)، (18/ 482).

[21] ابن حنبلٍ، أحمد الشيباني، **مسند الإمام أحمد**، (د. ط)، القاهرة: مؤسسة قرطبة، (د. ت)، (ح: 7939)، (مسند أبي هريرة)، (2/ 297)، (يقول شعيب: "إسناده قوي").

[22] ابن القيِّم، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين، **رسالة ابن القيِّم إلى أحد إخوانه**، تح: عبد الله بن محمد المديفر، (ط1)، الرياض: مطابع الشرق الأوسط ، (1420هـ)، (ص6).

ويخشع، ولا بدَّ من الطَّرق عليه؛ حتَّى يرقّ ويشفّ، ولا بدَّ من اليقظة الدَّائمة؛ كي لا يصيبه التَّبلُّد والقساوة"[23].

وهذا ما يدلُّ عليه قوله تعالى: ((وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ **فَقَسَتْ** قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ))، (سورة الحديد: آية 16). يقول القشيريُّ: وقسوة القلب تحصل من اتِّباعه للشَّهوة، والشَّهوة والصَّفوة لا تجتمعان في قلبٍ واحدٍ؛ فإذا حَصَلت الشَّهوةُ رَحَلت الصَّفوة. وموجِبُ القسوة أن ينحرفَ القلب عن مراقبة الله تعالى[24].

(3). نقض الميثاق.

الميثاق: هو العهد[25]. ويبدو أنَّ نقض العهد، وعدم الاكتراث بالمواثيق الَّتي يعقدها الإنسان؛ يُؤدِّي إلى قسوة القلب، كما يدلُّ على ذلك قوله تعالى: ((فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ **قَاسِيَةً**))، (سورة المائدة: آية 13). يقول القشيريُّ: وإنَّ قسوة القلب عقوبةٌ لهم من الله تعالى، على ما نقضوه من العهود، وإنَّ نقض العهد من أعظمِ الوِزْرِ الَّذي يقترفه العبد، والعقوبة عليه أشدّ عقوبة يُعَاقَبُ عليها[26].

والآية تتحدَّث عن قسوة قلوب بني إسرائيل، وإنَّما ربطت الآية بين نقض الميثاق وقسوة القلوب؛ "لأنَّ نقض الميثاق قد دنَّس نفوسهم، وأفسد فطرتهم، وقسَّى قلوبهم؛ حتَّى قتلوا الأنبياء بغير حقٍّ، وافتروا على مريم وبهتوها، وأهانوا ولدها الَّذي أرسله الله تعالى لهدايتهم، وإصلاح ما فسد من أمرهم، وحاولوا قتله، وافتخروا بذلك بمجرَّد الشُّبهة"[27].

(4). عدم التَّدبّر في آيات القرآن الكريم.

قال تعالى: ((أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ **فَقَسَتْ** قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ))، (سورة الحديد: آية 16).

تُحذِّر هذه الآية المؤمنين من عدم التَّدبُّر في كتاب الله تعالى، وهو الحقُّ الَّذي أنزله الله عزَّ وجلَّ على نبيِّه الكريم، فإنَّ أهل الكتاب من اليهود والنصارى، قد غفلوا عمَّا أنزل الله إليهم من الهدى والنُّور؛ فكانت النَّتيجة أن قست قلوبهم وأصبحوا فاسقين.

ففي الآية عتابٌ من الله تعالى لقومٍ من عباده المؤمنين، فترت هممهم، وقصَّرت عن القيام بما ندبوا له من الخشوع، ورقَّة القلوب، عند سماع المواعظ والقرآن، ثمَّ يُحذِّرهم الله تعالى أن يكونوا كأهل الكتاب، الَّذين طال العهد بينهم وبين أنبيائهم عليهم السَّلام؛ فقست قلوبهم ويبست؛ فأعرضوا عن أوامر الله تعالى ونواهيه، ثمَّ بيَّن لهم بضرب المثل، أنَّ القلوب القاسية تحيا بالذِّكر وتلاوة القرآن، كما تحيا الأرض الميتة بالغيث والمطر[28].

---

[23] قطب، سيد إبراهيم حسين الشاربي، **في ظلال القرآن**، (ط17)، بيروت: دار الشروق، (1412هـ)، (6/ 3489).

[24] يُنظَر: القشيريُّ، عبد الكريم بن هوازن، **لطائف الإشارات = تفسير القشيريِّ**، تح: إبراهيم البسيوني، (ط3)، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، (2000م)، (7/ 388).

[25] يُنظَر: ابن منظور، **لسان العرب**، (10/ 370)؛ وينظر: العسكريُّ، **معجم الفروق اللُّغويَّة**، (ص525).

[26] يُنظَر: القشيريُّ، **لطائف الإشارات = تفسير القشيريِّ**، (2/ 96).

[27] رضا، محمد رشيد، **تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)**، (د. ط)، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، (1990م)، (6/ 233).

[28] يُنظَر: المراغيُّ، أحمد بن مصطفى، **تفسير المراغي**، (ط1)، القاهرة: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده، (1365هـ - 1946م)، (27/ 172).

المطلب الثَّاني: الآثار النَّاتجة عن القسوة.

تُؤدِّي قسوة القلوب إلى نتائج سلبيَّة؛ من أهمِّها:

(1) الضَّلال والانحراف.

قسوة القلب تُؤثِّر على طبيعة الإنسان السَّويَّة، الَّتي ارتضاها الله تعالى له؛ فيصبح في ضلالٍ لا يعلم قدره إلَّا الله تعالى، ويشهد لذلك قول الله تعالى: ((فَوَيْلٌ **لِّلْقَاسِيَةِ** قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ))، (سورة الزمر: آية 22). والقرآن الكريم كتابٌ تلين منه الجلود، وتخشع له القلوب، وتدمع من وقعه العيون، بل "إنَّ له سلطاناً عجيباً على القلوب ليس للأداء البشريِّ، حتَّى ليبلغ أحياناً أن يُؤثِّر بتلاوته المجرَّدة على الَّذين لا يعرفون من العربيَّة حرفاً"[29]. وأيّ شاهدٍ أعظم من قوله تعالى: ((لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ))، (سورة الحشر: آية 21)؛ فالقلب الَّذي يقسو عند سماع كلام الرَّحمن، قلبٌ حاد عن الطَّريق السَّويِّ، وعاش في غيابات الضَّلال.

يقول الشَّيخ أبو زهرة: وإنَّ قسوة القلب وفساده وغفلته؛ ينجمان من الانحراف عن الطَّريق السَّويِّ المستقيم، الَّذي عبَّر عنه بالطَّرد؛ لأنَّ من ضلَّ الطَّريق، كلَّما سار في الضَّلال، تاه عن الحقِّ وغاب عنه؛ ولأنَّ القلب كلَّما أركس في الشَّرِّ قسا وأظلم، وصارت عليه غشاوة من الباطل تغطِّيه فلا يدرك، وتحجّره فلا يلين ولا يرقُّ[30].

(2) الجرأة على الذَّنب.

ومن الآيات الدَّالَّة على هذا الأثر، قوله تعالى: ((فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ **قَاسِيَةً** يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ))، (سورة المائدة: آية 13)؛ فهذه الآية تشير إلى معصيةٍ خطيرةٍ يقع فيها أصحاب القلوب القاسية؛ وهي تحريف كلام الله تعالى، ونسيان وعده.

يقول القشيريُّ: "وتحريفُهم الكلم عن مواضعه نوعُ عصيان منهم؛ وإنَّما حرَّفوا لقساوة قلوبهم"[31].

وجاء قوله تعالى: (يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ) "ثمرة لقسوة القلوب والطَّرد بالضَّلال؛ وذلك لأنَّهم لمَّا ضَلُّوا، وفسدت قلوبهم، واختلط فيها الزَّيف بالجوهر حتَّى غلب الزَّيف؛ ماتت ضمائرهم، وصاروا كذَّابين يكذبون على الله تعالى، وعلى النَّاس، فيُغيِّرون معاني التَّنزيل، ويزيدون فيه وينقصون، على حسب هواهم وشهواتهم، وارتكبوا بهتاناً عظيماً"[32].

(3) قلَّة المبالاة بالعاقبة.

يقول الزَّمخشريُّ: "إذا اجتمع في الرَّجل التَّجبُّر، والتَّكذيب بالجزاء، وقلَّة المبالاة بالعاقبة؛ فقد استكمل أسباب القسوة والجراءة على الله وعباده، ولم يترك عظيمة إلَّا ارتكبها"[33].

---

[29] قطب، **في ظلال القرآن**، (3/ 1786).

[30] يُنظَر: أبو زهرة، محمد، **زهرة التَّفاسير**، (د. ط)، القاهرة: دار الفكر العربي، (د. ت)، (4/ 2079).

[31] القشيريُّ، **لطائف الإشارات = تفسير القشيريِّ**، (2/ 96).

[32] أبو زهرة، **زهرة التَّفاسير**، (4/ 2080).

[33] الزَّمخشريُّ، محمود بن عمر، **الكشَّاف عن حقائق التَّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التَّأويل**، تح: عبد الرزاق المهدي، (ط3)، بيروت: دار إحياء التراث العربي، (1407هـ)، (4/ 166).

ويظهر هذا الأثر عند إمعان النَّظر في قوله تعالى: ((فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ **قَسَتْ** قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ))، (سورة الأنعام: آية 43)؛ أي: ولقد أرسلنا من قبلك يا محمَّد رسلاً إلى أقوامهم، فكان هؤلاء الأقوام أعتى من قومك في الشِّرك والجحود؛ فعاقبناهم بالفقر الشَّديد، والبلاء المؤلم؛ لعلَّهم يخضعون ويرجعون عن كفرهم وشركهم، لكنَّهم لم يعتبروا ويعودوا[34]. والحقيقة أنَّ القوم إنَّما تركوا التَّضرُّع، ولم يبالوا بالعاقبة؛ بسبب قسوة قلوبهم[35].

(4) استمراء الخيانة والاستخفاف بها.

ويمكن استنباط هذا الأثر من قوله تعالى: ((فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ **قَاسِيَةً** يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ * وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ))، (سورة المائدة: آية 13).

فقد كان من آثار قسوة قلوب بني إسرائيل خيانتهم؛ الَّتي تمثَّلت في "نقضهم العهد بينهم وبين رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، ومظاهرتهم المشركين على حرب رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، كيوم الأحزاب، وغير ذلك من هَمِّهم بقتله وسَبِّه"[36].

المبحث الثَّالث: نماذج قرآنيَّة دالَّة على قسوة القلب.

بيَّنت الآيات القرآنيَّة، الَّتي تحدَّثت عن قسوة القلوب، نماذج لأشخاصٍ امتلأت قلوبهم بالقسوة، وخلت من اللِّين والرَّحمة؛ ومن هؤلاء:

المطلب الأوَّل: قسوة قلوب بني إسرائيل.

كثر الحديث في القرآن الكريم عن بني إسرائيل وبيان أحوالهم، وجاء الحديث عنهم في القرآن الكريم في اتِّجاهين:

الأوَّل: بيان أحوال الصَّالحين منهم، كما في قوله تعالى: ((وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ * وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ))، (سورة السجدة: الآيتان 23، 24)؛ ومعنى (أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا) كما يقول الطَّبريُّ: رؤساء وقادة في الخير[37].

الثَّاني: بيان أحوال العصاة والطُّغاة والمنحرفين منهم، وقد شكَّل هؤلاء الأغلبيَّة، فقال تعالى: ((وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ))، (سورة المائدة: آية 66)؛ أي كثير من بني إسرائيل ساءت أعمالهم وأحوالهم[38].

---

(34) يُنظَر: طنطاويّ، محمد سيد، **التَّفسير الوسيط للقرآن الكريم**، (ط1)، القاهرة: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، (1997/ 1998م)، (ص1458).

(35) يُنظَر: ابن عادلٍ، **اللّباب في علوم الكتاب**، (8/ 148).

(36) القرطبيُّ، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي، **الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبيّ**، تح: أحمد البردوني، وَإبراهيم أطفيش، (ط2)، القاهرة: دار الكتب المصرية، (1384هـ - 1964م)، (6/ 116).

(37) يُنظَر: الطَّبريُّ، **جامع البيان في تأويل القرآن**، (20/ 194).

(38) يُنظَر: **نفسه**، (10/ 465).

وقد ركَّز القرآن الكريم على تناول أحوال هؤلاء، ووصف أفعالهم وأخلاقهم؛ حتَّى يُحذِّر المؤمنين من الوقوع فيما وقعوا فيه، والحقيقة أنَّ هؤلاء ما تركوا خطيئة ولا سيِّئة إلَّا ارتكبوها؛ فقد كذَّبوا بالأنبياء والمرسلين عليهم الصَّلاة والسَّلام، حتَّى سوَّلت لهم أنفسهم أن قتلوا بعضهم، ورأوا من الآيات عجباً عجاباً، ولكنَّهم ما استجابوا وما اعتبروا؛ فكانت النَّتيجة أن قست قلوبهم؛ فوصف سبحانه قلوبهم بأنَّها أقسى من الحجارة، فقال الله تعالى: ((ثُمَّ **قَسَتْ** قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ...)) (سورة البقرة: آية 74).

وقال ابن كثير: إنَّ في هذه الآية توبيخاً لبني إسرائيل، وتقريعاً لهم على ما شاهدوه من آيات الله تعالى، وإحيائه الموتى: (ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ) كله؛ (فهي كالحجارة) الَّتي لا تلين أبداً... فصارت قلوب بني إسرائيل مع طول الأمد قاسيةً بعيدةً عن الموعظة، بعد الَّذي شاهدوه من الآيات والمعجزات؛ فهي في قسوتها شبيهةٌ بالحجارة الَّتي لا علاج لها، أو أشدّ قسوة من الحجارة؛ لأنَّ من الحجارة ما تتفجَّر منها العيون الجارية، ومنها ما يشَّقَّق فيخرج منه الماء، ومنها ما يهبط من رأس الجبل من خشية الله تعالى[39].

ووجه تفضيل "تلك القلوب على الحجارة في القساوة؛ أنَّ القساوة الَّتي اتَّصفت بها القلوب مع كونها نوعاً مغايراً لنوع قساوة الحجارة، قد اشتركا في جنس القساوة الرَّاجعة إلى معنى عدم قبول التَّحوُّل كما تقدَّم؛ فهذه القلوب قساوتها عند التَّمحيص أشدُّ من قساوة الحجارة؛ لأنَّ الحجارة قد يعتريها التَّحوُّل عن صلابتها وشدَّتها بالتَّفرُّق والتَّشقُّق، وهذه القلوب لم تُجْدِ فيها محاولة"[40].

وذكر ابن عادلٍ أنَّ وصف قلوب بني إسرائيل بأنَّها أشدُّ قسوة من الحجارة؛ يعود إلى[41]:

1. أنَّ الحجارة لو كانت عاقلةً، ورأت هذه الآيات الَّتي رآها بنو إسرائيل؛ لقبلتها، كما قال تعالى: ((لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ))، (سورة الحشر: آية 21).
2. أنَّ الحجارة وإن كانت قاسيةً، فإنَّه ليس لديها امتناع عن أمر الله، بل هي منصرفةٌ على مراده تعالى.
3. أنَّ الحجارة يُنتَفع بها من بعض الوجوه، أمَّا قلوب هؤلاء فلا نفع منها ألبتَّة.

ويشهد لهذه القسوة واقع بني إسرائيل؛ المُتَمثِّل في قتل الأنبياء والآمرين بالقسط من النَّاس بغير حقٍّ، وأكلهم أموال النَّاس بالباطل، وتكذيب الرُّسل، ونقض العهود والمواثيق، وتحريف الكتاب وترك العمل به، وخيانة الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم والغدر به.

المطلب الثَّاني: قسوة قلوب الظَّالمين.

يُطلَق الظُّلم على "التَّصرُّف في ملك الغير، ومجاوزة الحدِّ. وقيل: وضع الشَّيء بغير محلِّه، بنقص أو زيادةٍ أو عدولٍ عن زمنه. ويُقال في مجاوزة الحقِّ... وفيما يقلُّ ويكثر من التَّجاوز؛ ولذلك يُستعمل في الذَّنب الصَّغير والكبير"[42].

---

[39] يُنظَر: ابن كثير، إسماعيل بن عمر، **تفسير القرآن العظيم**، تح: سامي بن محمد سلامة، (ط2)، الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، (1420هـ)، (1/ 304).

[40] ابن عاشور، **التَّحرير والتَّنوير**، (1/ 426).

[41] يُنظَر: ابن عادلٍ، **اللُّباب في علوم الكتاب**، (1/ 246).

[42] المناويُّ، **التَّوقيف على مهمَّات التَّعاريف**، (ص492).

والظُّلم من الجرائم الَّتي نفاها الله تعالى عن نفسه العليَّة؛ فقد جاء عن النَّبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام أنَّ الله تعالى قال: "يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّماً..."[43]. وحارب الإسلام جريمة الظُّلم، وشدَّد النَّكير على فاعلها، وحذَّر القرآن الكريم من الظُّلم، وبيَّن عاقبة الظَّالمين في الدُّنيا والآخرة، فقال تعالى: ((إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ))، (سورة الأنعام: آية 135)، وقال: ((أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ))، (سورة هود: آية 18)، وقال: ((فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ))، (سورة الزخرف: آية 65)، وغير ذلك الكثير من الآيات الَّتي حذَّرت من الظُّلم، وبيَّنت عاقبة الظَّالمين. وحذَّر النَّبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام منه تحذيراً شديداً، فقال: "اتَّقُوا الظُّلْمَ؛ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"[44].

والظُّلم وقسوة القلب قرينان؛ فإنَّ الإنسان لا يظلم الآخرين، ولا يعتدي عليهم، إلَّا إذا كان قاسي القلب، منزوع الرَّحمة والشَّفقة، يقول الله تبارك وتعالى: ((لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ **وَالْقَاسِيَةِ** قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ))، (سورة الحج: آية 53)؛ فإنَّ قسوة القلب من أهمِّ الأسباب الَّتي تُوقِع في الجرأة على الله تعالى بالذُّنوب والمعاصي، وعلى خلقه بالظُّلم والقتل والبطش والقهر.

المبحث الرَّابع: التَّوجيهات القرآنيَّة للتَّخلُّص من القسوة.

إنَّ الله عزَّ وجلَّ ما أنزل داءً إلَّا وجعل له دواءً، والقسوة، كما تبيَّن، داءٌ خطيرٌ، ومرضٌ يصيب القلب؛ فينعكس على الجوارح والسُّلوك، وبتدقيق النَّظر في الآيات القرآنيَّة الَّتي تحدَّثت عن قسوة القلوب؛ يمكن استنتاج مجموعةٍ من الأمور الَّتي تساعد في علاج هذا الدَّاء والتَّخلُّص منه؛ نستعرضها من خلال المطلبين الآتيين:

المطلب الأوَّل: ذكر الله تعالى.

ذكرُ الله تعالى يحيي القلوب، ويزيل القسوة منها، كما يحيي الغيث الأرض[45]، قال تعالى: ((أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ **فَقَسَتْ** قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ))، (سورة الحديد: آية 16).

فالقلوب العامرة بذكر الله تعالى؛ تملؤها الخشية واللِّين والرَّحمة، قال تعالى: ((أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ))، (سورة الرعد: آية 28)؛ أمَّا الَّذي ينغمس في الشَّهوات والملذَّات، ويطول عليه الأمد وهو على هذا الحال؛ فيقسو قلبه من ذلك[46].

قال ابن القيِّم: إنَّ في القلب قسوةً لا تذوب إلَّا بذكر الله تعالى؛ فينبغي للعبد أن يعالج قسوة قلبه بذكر ربِّه تعالى. وذكر حمَّاد بن زيدٍ عن المعلَّى بن زيادٍ أنَّ رجلاً قال للحسن: يا أبا سعيد، أشكو إليك قسوة قلب. قال له الحسن: أذبه بذكر الله تعالى. وما هذا إلَّا لأنَّ القلب كلَّما اشتدَّت به الغفلة؛ اشتدَّت به القسوة، فإذا ذكر الله تعالى؛ ذابت القسوة كما يذوب الرَّصاص في النَّار؛ فلا يذيب قسوة القلوب مثل ذكر علَّام الغيوب جلَّ في علاه[47].

---

[43] مسلم، **صحيح مسلم**، (ح: 2577)، (كتاب البر والصلة والآداب)، (باب تحريم الظلم)، (4/ 1994).

[44] **نفسه**، (ح: 2578)، (كتاب البر والصلة والآداب)، (باب تحريم الظلم)، (4/ 1996).

[45] يُنظَر: ابن عجيبة، **البحر المديد**، (7/ 480).

[46] يُنظَر: طنطاويّ، **التَّفسير الوسيط للقرآن الكريم**، (ص4092).

[47] يُنظَر: ابن القيِّم، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين، **الوابل الصَّيِّب من الكلم الطَّيِّب**، تح: سيد إبراهيم، (ط3)، القاهرة: دار الحديث، (1999م)، (ص71).

المطلب الثَّاني: التَّفكُّر في العاقبة.

لقد توعّد الله تعالى أصحاب القلوب القاسية، فقال: ((فَوَيْلٌ **لِّلْقَاسِيَةِ** قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ))، (سورة الزمر: آية 22)؛ فالهلاك لمن قست قلوبهم؛ حتَّى أصبحت لا تلين لذكر الله تعالى[48]

وهؤلاء الَّذين أصابت قلوبهم القسوة، يظلمون النَّاس، ويتعاملون معهم بتَجبُّرٍ وطغيانٍ، وقد حدَّثنا القرآن الكريم عن أصحاب الأخدود، الَّذين أحرقوا المؤمنين، وساموهم أشدّ العذاب؛ فانتقم الله تعالى منهم، كما يدلُّ عليه قوله تعالى: ((إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ))، (سورة البروج: آية 10). يقول الطَّبريُّ: إنَّ الَّذين أحرقوا المؤمنين والمؤمنات ثمَّ لم يتوبوا؛ فلهم عذاب جهنَّم في الآخرة، ولهم عذاب الحريق في الدُّنيا[49]، ويقول أبو زهرة: فهؤلاء قد بلغوا أقصى درجات القسوة في معاملتهم المؤمنين، وقد أخذهم الله عزَّ وجلَّ بقُوَّته أخذ عزيزٍ مقتدرٍ... وانتقم منهم كما انتقم من فرعون، وكما ينتقم من كُلِّ المشركين[50].

ولا شكَّ أنَّ التَّفكُّر في عاقبة هؤلاء؛ يدفع المسلم إلى التَّخلُّص من القسوة؛ لأنَّها ستجرُّ عليه الويلات في الدُّنيا والآخرة.

الخَاتِمَة:

الحمد لله الَّذي بنعمته تتمُّ الصَّالحات، والَّذي أعان على إتمام هذا البحث، المشتمل على معلومات ونتائج؛ يجدر بنا في نهاية المطاف أن نُلخِّص أهمَّها فيما يأتي:

1. يدور معنى القسوة في اللُّغة والاصطلاح والسِّياق القرآنيِّ حول محورٍ مشتركٍ؛ وهو غلظٌ في القلب وقسوةٌ فيه؛ بسبب انحرافه عن مراقبة الرَّبِّ جلَّ وعلا.
2. جاءت القسوة، في القرآن الكريم، في موضع الذَّمِّ، ولم ترد في موقع المدح مطلقاً.
3. اقترن لفظ القسوة، في الآيات القرآنيَّة جميعها، بالقلب؛ وما ذاك إلَّا لأنَّ القلب سيِّد الأعضاء؛ فإن قسا قست، وإن رقَّ ولان لانت.
4. أهمّ الأسباب الَّتي تُؤدِّي إلى قسوة القلب: طول المكث في الغفلة، ونقض الميثاق، وانحراف القلب عن مراقبة الله، وعدم التَّدبُّر في آيات القرآن الكريم.
5. أظهر الآثار النَّاتجة عن قسوة القلوب: الضَّلال والانحراف، والجرأة على الذَّنب، وقلَّة المبالاة بالعاقبة، واستمراء الخيانة.
6. أهمّ التَّوجيهات القرآنيَّة للتَّخلُّص من القسوة : ذكر الله تعالى، والتَّفكُّر في عاقبة القاسية قلوبهم.

---

[48] يُنظَر: حومد، أسعد، **أيسر التَّفاسير**، موقع المكتبة الشاملة، (http://shamela.ws)، (ص3959).

[49] يُنظَر: الطَّبريُّ، **جامع البيان في تأويل القرآن**، (24/ 344).

[50] يُنظَر: أبو زهرة، **زهرة التَّفاسير**، (1/ 5281).

المَصَادِر وَالمَرَاجِع:

البخاريُّ، محمَّد بن إسماعيل، **صحيح البخاريِّ**، تح: محمَّد زهير النَّاصر، (ط1)، بيروت: دار طوق النَّجاة، (1422هـ).

البغويُّ، الحسين بن مسعود، **معالم التَّنزيل**، تح: محمَّد عبد الله النّمر، (ط4)، الرِّياض: دار طيبة للنَّشر والتَّوزيع، (1417هـ).

الجرجانيُّ، محمَّد بن عليّ، **التَّعريفات**، تح: إبراهيم الأبياريّ، (ط1)، بيروت: دار الكتاب العربيّ، (1405هـ).

حقّيٌّ، إسماعيل حقّيّ بن مصطفى الإستانبوليُّ الحنفيُّ الخلوتيُّ، **روح البيان**، (د. ط)، بيروت: دار الفكر، (د. ت).

ابن حنبل، أحمد الشَّيبانيُّ، **مسند الإمام أحمد**، (د. ط)، القاهرة: مُؤسَّسة قرطبة، (د. ت).

الرَّازيُّ، محمَّد بن عمر، **مفاتيح الغيب**، (ط1)، بيروت: دار الكتب العلميَّة، (1421هـ).

الرَّاغب الأصفهانيُّ، أبو القاسم الحسين بن محمَّد، **المفردات في غريب القرآن**، تح: صفوان عدنان الدَّاوديّ، (ط1)، دمشق: دار القلم، وَبيروت: الدَّار الشَّاميَّة، (1412هـ).

رضا، محمَّد رشيد، **تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)**، (د. ط)، القاهرة: الهيئة المصريَّة العامَّة للكتاب، (1990م).

الزُّبيديُّ، محمَّد بن محمَّد بن عبد الرَّزَّاق، **تاج العروس من جواهر القاموس**، (د. ط)، القاهرة: دار الهداية، (د. ت).

الزَّمخشريُّ، محمود بن عمر، **الكشَّاف عن حقائق التَّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التَّأويل**، تح: عبد الرَّزَّاق المهديّ، (ط3)، بيروت: دار إحياء التُّراث العربيّ، (1407هـ).

أبو زهرة، محمَّد، **زهرة التَّفاسير**، (د. ط)، القاهرة: دار الفكر العربيّ، (د. ت).

الشَّعراويُّ، محمَّد متولّي، **تفسير الشَّعراويِّ**، (ط1)، القاهرة: مطابع أخبار اليوم، (1991م).

الطَّبريُّ، محمَّد بن جرير، **جامع البيان في تأويل القرآن**، تح: أحمد شاكر، (ط1)، بيروت: مُؤسَّسة الرِّسالة، (1420هـ).

طنطاويّ، محمَّد سيِّد، **التَّفسير الوسيط للقرآن الكريم**، (ط1)، القاهرة: دار نهضة مصر للطِّباعة والنَّشر والتَّوزيع، (1997/ 1998م).

ابن عادل، أبو حفص سراج الدِّين عمر بن عليّ الحنبليُّ الدِّمشقيُّ النُّعمانيُّ، **اللّباب في علوم الكتاب**، تح: عادل أحمد عبد الموجود، (ط1)، بيروت: دار الكتب العلميَّة، (1410هـ).

ابن عاشور، محمَّد بن الطَّاهر، **التَّحرير والتَّنوير**، (د. ط)، تونس: الدَّار التُّونسيَّة للنَّشر، (1984م).

عبد الباقي، محمَّد فؤاد، **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، (ط1)، القاهرة: دار الحديث، (2001م).

ابن عجيبة، أحمد بن محمَّد المهديُّ الفاسيُّ، **البحر المديد**، (ط2)، بيروت: دار الكتب العلميَّة، (1423هـ).

العسكريُّ، الحسن بن عبد الله بن سهل، أبو هلال، **معجم الفروق اللُّغويَّة**، تح: بيت الله بيات، (ط1)، إيران: مُؤسَّسة النَّشر الإسلاميّ، (1412هـ).

ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريَّا، **معجم مقاييس اللُّغة**، تح: عبد السَّلام هارون، (ط2)، بيروت: دار الفكر، (1399هـ - 1979م).

القرطبيُّ، أبو عبد الله محمَّد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاريُّ الخزرجيُّ، **الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبيِّ**، تح: أحمد البردونيّ، وَإبراهيم أطفيش، (ط2)، القاهرة: دار الكتب المصريَّة، (1384هـ - 1964م).

القشيريُّ، عبد الكريم بن هوازن، **لطائف الإشارات = تفسير القشيريِّ**، تح: إبراهيم البسيونيّ، (ط3)، القاهرة: الهيئة المصريَّة العامَّة للكتاب، (2000م).
قطب، سيِّد إبراهيم حسين الشَّاذليّ، **في ظلال القرآن**، (ط17)، بيروت: دار الشُّروق، (1412هـ).
ابن القيِّم، محمَّد بن أبي بكر بن أيُّوب بن سعد شمس الدِّين، **رسالة ابن القيِّم إلى أحد إخوانه**، تح: عبد الله بن محمَّد المديفر، (ط1)، الرِّياض: مطابع الشَّرق الأوسط، (1420هـ).
ابن القيِّم، **الرُّوح**، (د. ط)، بيروت: دار الكتب العلميَّة، (1395هـ - 1975م).
ابن القيِّم، **الوابل الصَّيِّب من الكلم الطَّيِّب**، تح: سيِّد إبراهيم، (ط3)، القاهرة: دار الحديث، (1999م).
ابن كثير، إسماعيل بن عمر، **تفسير القرآن العظيم**، تح: سامي بن محمَّد سلامة، (ط2)، الرِّياض: دار طيبةً للنَّشر والتَّوزيع، (1420هـ).
المراغيُّ، أحمد بن مصطفى، **تفسير المراغيِّ**، (ط1)، القاهرة: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابيّ الحلبيّ وأولاده، (1365هـ - 1946م).
مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجَّاج القشيريُّ النِّيسابوريُّ، **صحيح مسلم**، تح: محمَّد فؤاد عبد الباقي، (د. ط)، بيروت: دار إحياء التُّراث العربيّ، (د. ت).
المناويُّ، محمَّد عبد الرَّؤوف، **التَّوقيف على مهمَّات التَّعاريف**، تح: محمَّد رضوان الدَّاية، (ط1)، بيروت: دار الفكر، (1410هـ).
ابن منظورٍ، محمَّد بن مكرم، **لسان العرب**، (ط1)، بيروت: دار صادر، (د. ت).
حومد، أسعد، **أيسر التَّفاسير**، موقع المكتبة الشَّاملة، (http://shamela.ws).